الثورة العراقية الكبرى

بقلم : الاستاذ عبد الرزاق الحسني

— ٦ —

علماء الدين

أتينا في المعلومات المتقدمة على بعض العهود التي قطعها الحلفاء لضمان عطف العرب على قضيتهم في غضون الحرب العالمية الاولى، وذكرنا طرفا من كيفية عبث الحلفاء بهاتيك العهود فكان هذا العبث في مقدمة الاسباب التي سلبت الثقة منهم وبعثت الشك في حسن نواياهم .

ثم جئنا على ذكر جملة من الاخطاء الكثيرة التي ارتكبها الحلفاء ، ولاسيما الانكليز ؛ في كيفية ادارتهم البلاد وما نجم عن ذلك من تفسخ في الاخلاق واضطراب في الاحطام وامتهان للكرامات وانات في الصدور بحيث اصبح سوء الادارة عاملا قويا من العوامل التي ادت الى نشوب نار الثورة .

ونود اليوم ان نعالج سبباً آخر من اسباب الثورة ، وهو في نظر الكثير من البحاث والمؤرخين من العوامل الرئيسية المهمة لاندلاع لهيبها نعني بهذا السبب رجال الدين الحنيف فنقول :

لا يخفى ان المجتهدين من علماء الشيعة الامامية يرجع جميع أبناء هذه الطائفة في تلقي الفتاوى والاحكام الدينيـــة ، والشيعيون يعتقدون ان علماءهم نواب ائمتهم فلا يخالفون لهم امراً ولا فتوى ولا حكما من الاحكام الشرعية . وقـد ظهرت من قديم الزمان طبقات مختلفة من العلماء المذكورين واختلفت اجتهاداتهم في كيفية كفاح الغزاة من الغربيين الاستعماريين فكان بعضهم يرى المسالمة في حالة الضعف مقتصراً على القيام بوظائفه الدينية . وقسم آخر يعتقـد عقيدة راسخة بان الاسلام لا يجتمع مع السيطرة الاجنبية تحت صعيد واحد مهما كانت الاحوال . فعلى كل مسلم أن يستميت في الدفاع عن نفسه متى هاجمه أو اراد الاستيلاء على بلاده قوم آخرون من غير ابناء دينه المسلمين .

وقد كان من هذين الحزبين جماعات في كربلا والنجف والكاظمية وسامراء . فلما كانت الحرب العالميـة الاولى جرت مناقشات ومداولات كثيرة في المحافل الدينية الموجودة في هذه المدن المقدسة في موضوع الجهاد والقتال فكان فريق يدعوا الى المسالمة بسبب ضعف الاستعداد وقلة وسائل الدفاع وعدم ملائمة الظروف للقتال . وكان اكثرية العلماء والطلاب ولاسيما العرب من دعاة الحرب والدفاع . وقد تغلب هذا الحزب اخيراً فكان لآرائه وفتاواه النفوذ على جمهور الناس في العراق .

ولما تم الانكليز الاستيلاء على العراق وظهرت بوادر سياستهم الخرقاء وانزلوا بالعراقيين ضروب الظلم والارهاق بث العراقيون شكاواهم من سوء سياسة السلطة المحتلة الى العلمـاء واشعروهم بانهم يفضلون الموت على الحياة تحت هذا النوع من سيطرة المحتل وما زالوا يراجعون العلماء ويؤكدون لهم قدرتهم على مكافحة الجيوش البريطانية حتى اتفق الطرفان وايد كل منهما الآخر على الشروع في مقاتلة الغاصبين ؟ اضف الى ذلك ان العرب مطبوعون على اخلاق كريمة من جملتها الشمم والاباء وعدم الصبر على الظلم ولو على تعسف الحكام فكانوا يستهونون الموت في ساحة الشرف والنضال على حياة الذل والهوان فجاءت فتاوى العلماء الاعلام بامتشاق الحسام في وجه هذا الظلم ومحاربة هذا الاستبداد محفزاً لهممهم ومهيجاً لشعورهم .

تنمر رجال القبائل

لقد بعثت الحرب وسوء الادارة وعنف الموظفين البريطانيين في رجال القبائل روح التكتل وتناسي الضغائن والعصبيات القبلية بحيث حلت محلها العصبية القبلية العامة وقد ساعد على ذلك تحسن الوضع الاقتصادي والمالي واليسر الذي نشأ بسبب الحرب وحاجة الجيش المحتل الى المنتوج الزراعي المحلي مهما بلغت اثمانه فاستعان رجال القبائل بهـذه الثروة الطارئة وباسعار الحبوب الفاحشة على شراء العتاد والسلاح والبذل بسخاء في سبيل تحرير البلاد من الهيمنة الاجنبية يضاف الى ذلك ان القبائل في العراق كانت تتمتع بنفوذ واسع واستقلال غير منكور مدة حكم الاتراك العثمانيين فلما احتلت الجيوش البريطانية العراق حدت من هذا النفوذ وقضت على هذا الاستقلال وقربت البعض من السراكيل والفلاحين للقضاء على السلطان الذي كان يتمتع به الرؤساء مدة

حكم العثمانيين هذا الى الاهانات التي كان الضباط البريطانيون يتعمدون في توجيهها الى هؤلاء الرؤساء امعاناً في خضد شوكة نفوذهم وكلم صدورهم والحط من مقامهم في نظر رؤسهم .

المتزلفون والمتملقون

انتهينا الى الآن من تعداد اهم العوامل التي ادت الى حدوث ثورة عام ١٩٢٠ م ويجب ان لا يفوتنا جعل سلوك المتزلفين والمتصيدين في الماء المكر سبباً آخر لذياك الانفجار التاريخي الخالد . فقد القت حكومة الاحتلال نفسها في احضان زمرة الاغنياء والاشراف عرفوا بالملق الى السلطة المحتلة . وقد اقنع هؤلاء الاستغلاليون ممثلي اللغة بان الجمهور في قبضتهم وزهن اشارتهم ، وانهم يديرون مقاصده وافكاره حسبما يشاؤون وهم يفتخرون بتطبيق رغائب الحكومة مهما كان نوعها فلقيت هذه الوساوس صدوراً رحبة في دوائر المحتلين لأنها تقتضي تخفيف عبء النفقات عن كاهل دافع الضريبة البريطاني فلا حاجة الى حامية كبيرة يضعها اشراف ابنائها في قبضة الحكومة المحتلة عن طيبة خاطر وقد غاب عن بال السلطة ان الرأي العام غير مرتاح لتقرب اولئك المتزلفين منها وان له مقاصد ومآرب غير مقاصدهم ومآربهم وانه — بقول اوضح — باب ينشد الاستقلال ويحكم بالحرية خصوصا وان اخبار قيام الحكومة الفيصلية في الشام ونشوب نيران الثورة المصرية كانت ملء الاسماع . وليت المتزلفين وقفوا عند حد في حيلهم ودسائسهم فان بعضهم لم يقتصر على اكتساب عطف الحكومة عليهم وقبولها برسم العبودية منهم بل انهم عمدوا الى الوشاية والسعاية بالناس فاشاروا بنفي هذا وحبس ذاك ومن البلية ان اقوالهم الكاذبة كانت تلقى آذاناً صاغية (١)

قالت مس بل في مذكرتها التي رفعتها الى حكومتها البريطانية في شباط ١٩١٩ وهي تستعرض هذه الحوادث :

« وقبل ان نختم هذا السجل العجيب نقول ان الاشراف الذين وقفوا على المعارضة المضادة للمعارضة الثانية — التي طالب فيها الأهلون انشاء حكومة عربية مستقلة — قالوا لوكيل الحاكم الملكي العام ان الكتلة المعارضة للانكليز لا تزال تبث دعاية قوية ضدهم في المقاهي وطلبوا نفي بعض الزعماء باعتبار انهم يكونون خطراً لا على الحكومة البريطانية حسب ؛ بل على كيان العراق وسلامته وقد قبض فعلا على .. الخ » (٢)

(١) راجع ما كتبه مهدي البصير في كتابه « تاريخ القضية العراقية » ص ٦٨ — ٦٩

الشروع في سياسة الارهاب

لما جدّ الكربلائيون في تنظيم مضابطهم على أثر القاء السلطة المحتلة اسئلة الاستفتاء الثلاثة وسعوا ان تكون محققة لرغباتهم مطمئنة لمصلحة بلادهم امرت الحكومة بالقبض على ستة منهم في اليوم الخامس من ذي القعدة ١٣٣٧ هـ اول تموز سنة ١٩١٩ م وهم :

١ — عمران الحاج علوان
٢ — عبد الكريم العواد
٣ — كليفح الحسون
٤ — محمد علي ابو الحب
٥ — السيد محمد مهدي المولوي
٦ — السيد محمد علي الطباطبائي

وقد اساءت هذه البادرة المرجع الديني الاكبر ، المرزه محمد تقي الحائري ؛ فكتب الى كونيل ولسن كتاباً في اليوم التالي « ملؤه تأنيب وتبكيت لعمله هذا المخالف للشرائع العالمية ويبرئ فيه ساحة المبعدين من كل تهمة خلا مطالبتهم السلمية بحقوق البلاد المغتصبة المشروعة وطلب اليه ان يخلي سبيلهم » «٣» فلم يلتفت الكولونيل الى هذا الطلب فكتب الجواب التالي :

العدد ٥٣٩٤٥ التاريخ ٩-٨-١٩١٩

حضرة آية الله العظمى حجة الاسلام المرزه محمد تقي الحائري الشيرازي دامت بركاته .

لي الشرف أن اعرض لكم انه وصلنا كتابكم المؤرخ ٨ ذي القعدة سنة ١٣٣٧ تذكرون بكل اسف ان الاعمال التي

[٢] تجد اصل المذكرة في كتاب أي . تي ولسن « تصادم في الولاء » ص ٣٣٠ — ٣٣٦

ومن الغريب ان يتبع الانكليز في الحرب العالمية الثانية السياسة التي اتبعوها في الحرب العالمية الاولى رغم ظهور اخطائها وتضررهم بسببها ولا غرو في ذلك فالبريطانيون محافظون حتى على الخطأ .

[٣] من كتاب كربلا في التاريخ السيد عبد الرزاق الوهاب .

اقدمت عليها حكومة بريطانية العظمى لاجراء واجبات وظائفها ولحفظ احكام القوانين والانظمة اوجبت استياء وتشويش العلماء الاعلام دامت بركاتهم في كربلاء وكنت اعتقد اني في تجاريب الاربع سنوات الماضية قد ثبت لدى حضرتكم ومتعلقيكم بان الحكومة البريطانية اعتنت بصيانة وسلامة العتبات المقدسة اكثر من أية دولة اخرى .

كانت كربلا منذ مدة طويلة بؤرة للاغتشاشات والثورات بين الاهالي والحكومة وكما لا يخفاكم بأن هذه الثورات كانت تحدث اضراراً وخسائر وتلفيات كثيرة من قبل الجنود التركية على الاهالي والمدينة لاسيما ان شرف العلم والعلماء كان غير مصون في تلك العصور مما أدى الى تيقظ الحكومة البريطانية واهتمامها بمثل هذه الاحوال المخالفة للعادات البريطانية .

لقد حصلت لنا اطلاعات كافية في مدة الاثني عشر شهراً الماضية تثبت ان بعض الاشخاص في كربلا يقومون بتشويش الاذهان وينشرون اخباراً غير مرضية وغايتهم من ذلك تشويش افكار الناس ضد الحكومة البريطانية ؛ وكنت منتظراً من مدة طويلة انتهاء هذه الاشاعات الغير مرضية بعد اعلان الصلح ؛ لكني ألاحظ ان الامر قد انعكس وان بعض الجاهلين قد زادت جسارتهم وكثر سعيهم في تشويش الناس فلذا لاحظت ان من الواجب القبض على بعض الافراد وان الاشخاص الذين قبض عليهم هم اربعة من اهالي المدينة الذين لم تكن لهم أية علاقة معكم ولا مع العلماء الاعلام والروضات المطهرة ؛ والاثنان اللذان هما من السادة وان لم يكونا من ذوي الاهمية الا انهما ينشران الاشاعات الكاذبة ضد الانكليز وهو باعث لتشويش افكار الاهالي ونظراً لاقداماتكم فقد عزمنا على تسريح السيد محمد علي الطباطبائي وارساله الى سامراء على ان يسكن هناك ولا يخرج منها بدون اجازة منا فنرجوكم اشعاره بهذا الامر تحريرياً عند وصول كتابنا هذا اليكم مع اخباره بان يبقى هناك ساكناً وان لا يتدخل في امور الناس ، واذا تخلف عن التقيد بهذا الامر فانا بكمال حريتنا ننفيه عن هذه المملكة الى محل لا يتمكن فيه من احداث أي تشويش . واما السيد محمد مهدي المولوي فان له اليد الطولى في تشويش افكار العموم ولما انه هندي الاصل فقد استحسنا ارساله الى وطنه الاصلي حيث يعيش بكل الحرية لانه لا يمكن

من الادب المنسي

للسيد مرتضى منفرد

بنفسي من لقيت غداة جمع ... على عجل يسجين الشفوفا
مررناهن تعسف المطايا ... نريد منيً فما رمنا وقوفا
وفي الاظعان بدر دجى سباني ... بطلعته وما الفى النصيفا
ولما ان تمثل لي هواه ... عداني بالبنية ان اطوفا
وزلت عن تقى قدمي كأني ... هنالك لم اكن رجلا عفيفا

ابقاؤه في كربلا حيث وجوده موجب لعدم استراحة الناس فيها.

لنا وثيق الرجاء ان بعض الاشخاص في كربلا قد انتبهوا واحترزوا من بعض اعمالهم التي توجب عليهم المسؤولية وان حكومة بريطانية ترغب في اعطاء جميع الناس الرفاهية التامة لكنها لا تود ان يستعمل بعض الاشخاص هذه الحرية والرفاهية لاغراض تولد الاغتشاشات والتشويشات بين الناس . وقد قدمت هذه الرسالة بواسطة النواب محمد حسين خان المعروف بالخدمة لدينا وفي الحقيقة انه الرجل الوحيد الذي نعتمد عليه وقد زودته ببعض معلومات شفوية ليعرضها على حضرتكم والسلام ؟

لفتننت كولونيل م ئي ه تي ولسن
القائم باعمال الحاكم الملكي العام في العراق

ولقد كان لوصول هذ الكتاب الى يد المجتهد الاكبر الامام الحائري ؛ اسوء الوقع والاثر فاعتزم مغادرة العراق احتجاجا على امتهان كرامات الوطنيين والضغط على حرياتهم ولكن جمعاً من الاخيار والاغيار اعتبر هذه المغادرة هروباً من حقل الجهاد فاشار بعدم المجازفة بها واراد الحاكم الملكي العام ان يطيب خاطر الامام فسحب ميجر بوفل من حاكمية كربلا حيث عهد بها الى محمد خان بهادر الايراني ؛ وجعل كربلا ناحية تابعة لقضاء الهندية التابع للواء الحلة مجبراً بذلك ملاكيها ومترفيها بمراجعة طويريج دون كربلا وكذلك امر باعادة المبعدين الى وطنهم . أما التعليمات الشفوية التي زود بها الحاكم الملكي العام النواب محمد حسين خان ليعرضها على الامام الحائري فقد كانت كمية كبيرة من الدراهم رفضها الامام بكل اباء وانفة ؟

بغداد — عبد الرزاق الحسني